

السلطان سليم الأول لم يكن أول تركي يحكم مصر والشام

الأستاذ الدكتور: رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - عميد كلية الآداب السابق

جامعة الزقازيق - مصر

مقدمة

كان السلطان سليم الأول سلطان الدولة العثمانية أول حاكم عثماني يحكم مصر والشام بعد دخول القوات العثمانية بقيادة بلاد الشام عام ١٥١٦م وهزيمة السلطان المملوكي قانصوه الغوري سلطان الدولة المملوكة التي تسيطر على مصر والشام من عام ١٢٦٠م، وبعد هزيمة قانصوه الغوري ومقتله في موقعة مرج دابق تقدم الجيش العثماني إلى مصر حيث التقى بالسلطان طومانباي الذي خلف السلطان قانصوه الغوري في حكم مصر والشام، وهزمه عام ١٥١٧م وشنقه على باب زويلة، ودخل مدينة القاهرة ليعلن السلطان سليم الأول تبعية مصر للدولة العثمانية كولاية من ولاياتها وانتهاء سلطنة المماليك في حكم مصر والشام.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم الأول (١٥٢٢-١٥٦٠م) أعلنت التنظيمات العثمانية للبلاد التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية إلى الولايات، كانت مصر ولاية من ولاياتها بل وأهم ولاياتها، ظل هذا الوضع قائماً حتى إعلان الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤م، تخللت هذه الفترة سنوات الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م). والحكم الوراثي لأسرة محمد علي من عام ١٨٠٥م تحت السيادة العثمانية، والاحتلال البريطاني لمصر من ١٨٨٢-١٩١٤م، كانت مصر أيضاً تحت السيادة العثمانية رغم وجود قوات الاحتلال البريطاني لمصر.

لم يكن السلطان العثماني سليم الأول حاكم تركي لمصر وبلاد الشام، بل سبقه حكام أتراك آخرون كان أهمهم أحمد بن طولون، والسلطان الظاهر بيبرس.

أولاً: الفتح الإسلامي لبلاد الترك:

ارتبطت الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الأتراك بالفتوحات في كل من بلاد الشام والعراق وفارس، وذلك أن القوات العربية الإسلامية خاضت معارك شديدة في العراق ضد الفرس، انتصرت فيها الجيوش العربية انتصارات حاسمة أدت إلى انهيار الإمبراطورية الساسانية بأكملها على يد كل من خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وغيرهما.

وقد بدأ الفتح الإسلامي بالحيرة والأنبار، وكان ذلك زمن الخليفة الأول أبو بكر الصديق، ثم استمر الفتح في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي كلف سعد بن أبي وقاص عام ١٥ هـ الذي نجح في فتح الأبله وتخطيط مدينة البصرة على شط العرب قرب التقاء نهري دجلة والفرات في معركة شهيرة عرفت بمعركة القادسية التي أتبع نجاح العرب المسلمين في تحقيق الانتصار فيها سقوط المدائن عاصمة الدولة الساسانية في يد الجيش العربي الإسلامي.

وتتابعت المعارك بين الجيوش العربية الإسلامية والجيوش الفارسية، كان من أهمها موقعة نهاوند عام ٢١ هـ، التي تعتبر خاتمة المعارك الفاصلة في تاريخ الفتح العربي لفارس، ولذلك سميت فتح الفتوح، وبها انهار سلطان الفرس نهائياً، حيث ترتب على انتصار المسلمين في نهاوند سقوط عدد من المدن الفارسية في يد الجيوش العربية الإسلامية^(١). واستمرت الغزوات العربية الإسلامية شرقاً، حيث تم فتح الجزيرة منذ عام ١٩ هـ^(٢)، وأهم مدنها الرقة والرها ونصيبين وميفارقين وقرى الفرات حتى عام ٢٠ هـ، وحيث تم فتح أرمينية الذي بدأ في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان واستكمل على يد عامل الدولة على الشام معاوية بن أبي سفيان، وأهم المدن الأرمينية "ديبل" و "جرزان" و "نفليس" وغيرها^(٣).

وقد اتجهت أنظار الدولة العربية الإسلامية إلى استمرار الفتوحات شرقاً، وقد شهد عهد الدولة الأموية فتح كل البلاد ما وراء النهر، وجرجان وطبرستان، والسند، فقد تمثلت فتوحات بلاد ما وراء النهر وأهمها خراسان وتركستان وما وراء نهر جيحون، وذلك في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، حيث تم فتح إقليم خوارزم ثم عبر الجيش العربي نهر جيحون إلى تركستان (بلاد ما وراء النهرين) فضم أهم مدنها مثل سمرقند وخجندة، ومرو وبلاد الصغد التي خضعت على يد المهلب بن أبي صفرة وترمز^(٤).

وعندما تولى قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خراسان عام ٨٦ هـ في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك اتخذت الفتوحات العربية الإسلامية في بلاد ما وراء النهر نشاطاً كبيراً، فقد تم منح مدن: فرغانة، كاشان، أورشت، بيكند، بخاري، سمرقند، طقشند (الشاش) عام ٩٥ هـ، وفي نفس العام غزت الجيوش العربية الإسلامية كاشغر أدنى مدائن الصين وطرقت أبواب الصين من الجهة الغربية^(٥).

وهكذا كانت فتوحات قتيبة في بلاد ما وراء النهر فاتحة اتصال العرب بالجنس التركي، كما كان لجهود قتيبة الموفقة أعظم الأثر في إنشاء مراكز جديدة للثقافة العربية والإسلامية في وسط آسيا، كما قوت ومكنت العلاقات بين الدولة العربية والصين، وعندما قتل قتيبة عام ٩٦ هـ، خسرت الدولة العربية الإسلامية خسارة عظيمة حيث يعد من أعظم قادة الفتح الإسلامي، ولو أنه عاش أطول من ذلك لأمكن للمسلمين أن يتوغلوا حتى الصين، بدليل أنه لما قتل توقفت فتوحات المسلمين في بلاد الترك إلى الحد الذي وصل إليه قتيبة بن مسلم الباهلي^(٦).

وعندما ولي يزيد بن المهلب والياً على خراسان والعراق عام ٩٧ هـ عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بن مروان، وجه همه لفتح جرجان وطبرستان، ولم تكن أقدام الجيوش العربية الإسلامية قد وطئت أراضي تلك البلاد قبلاً، ثم فتح كل من فغانستان وكل سكانها من الترك، ثم زحف إلى جرجان فدعاه أهلها إلى الصلح فأجابهم يزيد إلى ذلك، وبعد ضم

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥١٣.

(٢) يعني بالجزيرة العربية الأراضي الواقعة بين نهر دجلة والفرات.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥١٧.

(٤) ابن الأثير (علي بن أحمد بن عبد الكريم): كتاب الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ج ٤، ص ٤٥٤.

(٥) ابن الأثير: المرجع السابق، ص ٥٢٣.

(٦) فيليب حتى: تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ٢٧٥.

جرجان صلحاً طمع يزيد في الاستيلاء على مدينة طبرستان الحصينة كانت تعرف أيضاً باسم "مازندران" وتقع إلى الجنوب في بحر قزوين، وكانت تسكنها عناصر فارسية.

ولا يمكن ضمان استقرار الفتح الإسلامي العربي في تركستان وخراسان دون فتح بلاد السند، تلك البلاد التي تقع في شمال شبه القارة الهندية والتي يعرفها العرب ويرجون فتحها منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وقد بدأت عملية الفتح منذ عام ٣٨ هـ في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، وفي عهد الدولة الأموية نجحت الجيوش العربية الإسلامية في فتح كل من مكران، قندهار، الديبل، البيدون، مهران، برهمتاباد العتيقة، الملتان وهي أكبر مدن السند الأعلى أحصنها على الإطلاق^(١).

ثانياً: أحمد بن طولون من أصل تركي:

للحديث عن أحمد بن طولون وأصله التركي حتى وصوله حاكماً لإمارة تضم كلاً من مصر والشام، نشير إلى ظهور وغلبة العنصر التركي في زمن الخلافة العباسية في زمن ضعفها خاصة في العصر العباسي الثاني، وعندما أحست العناصر التركية فيما وراء النهر بضعف السلطة المركزية أخذت تلك العناصر التركية، تحاول إنشاء دول تركية إسلامية على أنقاض الدولة العباسية المنحلة، وقد ساعدتهم صفاتهم الجسمانية وثقافتهم الحربية والسياسية التي ورثوها عن الدولة التي اتصلوا بها^(٢).

ورغم قوة واتساع وتماسك الدولة العباسية منذ نشأتها على أعقاب الدولة الأموية حتى نهاية حكم الخليفة هارون الرشيد، فقد أخذت الدولة في التدهور والانحيار منذ منتصف القرن الثالث الهجري نتيجة للفساد السياسي والارتباك الاقتصادي، ونتج عن ذلك ظاهرتان خطيرتان هما:

- ١- ظاهرة المصادرات التي سنّها الخلفاء للضيق المالي الذي انتابهم.
- ٢- ظاهرة تغلب أمراء الأطراف واستغلال الولايات البعيدة، مما أذن بانتهاء عصر وبدء عصر ثان له خصائصه ومميزاته، ويمكن أن يطلق عليه عهد الدول المستقلة أو انحلال الدولة العباسية، واستقلال ولاياتها^(٣).

وكان استخدام العنصر التركي في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله الذي خلف المأمون عام ٢١٨ هـ، في الجيش العباسي، عمالاً على الولايات، نقطة تحول في تاريخ الدولة العباسية تمثل في ضياع نفوذ الخلافة واستيلاء الأتراك على الحكم، وكان مبدأ ظهور العنصر التركي في عهد الخليفة المعتصم بالله بعد اشتراكهم في محاربة الروم وانتصارهم باسم الخليفة في موقعة عمورية وكان قائد الجند العباسيين أشناس التركي. وبعد أن كانت الأحداث تتصل بزعامة فارسية تمثلت في أبي مسلم الخراساني والبرامكة، ارتبطت الأحداث في عهد المعتصم بزعامات تركية مثل: أشناس وإتياخ، وغيرهما^(٤).

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٦٣٠-٦٣١.

(٢) د. حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٨.

(٣) د. محمد علي بدير: الدويلات الإسلامية في المشرق، القاهرة.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام، القاهرة، ١٩٥٣، ج ١، ص ٦.

وبسبب استفحال نفوذ الترك في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، بني المعتصم مدينة جديدة عرفت باسم " سر من رأي " اختصر الاسم إلى " سامراء " تكون مقراً للعنصر التركي مما زاد في نفقات الدولة وألجأ الخليفة المعتصم إلى مصادرة أموال الوزراء وغيرهم لزيادة دخل الدولة وللإنفاق على طلبات العنصر التركي المتزايدة.

وفي عهد الواثق بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢هـ) ازداد وفود العنصر التركي من بلادهم (تركستان) ومن ثم زادت أعدادهم في عاصمة الخلافة وفي الجيش العباسي، فزاد نفوذهم بسبب ما بذلوه في المعارك العسكرية من بطولات لخدمة الخلافة العباسية، وقد ازدادت سلطة أشناس التركي في عهد الخليفة الواثق، حيث استخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهرًا (١).

وبعد وفاة الواثق كان للعنصر التركي دوره في اختيار جعفر بن المعتصم الذي لقب بالمتوكل على الله حيث أخذت له البيعة في ٢٤ ذي الحجة ٢٣٢ هـ / أغسطس ٨٤٧م، وفي عهده علا شأن العنصر التركي وبرز من بينهم "إتياخ" الذي تسلط على الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبربر والحجابة ودار الخلافة (٢). ثم جاء مقتل الخليفة المتوكل على الله عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١، على أيدي الأتراك، وبذلك انتقلت السلطة للعنصر التركي الذي أصبح بيدهم تعيين وعزل من يشاءون في منصب الخلافة.

وعمل العنصر التركي على تعيين الخلفاء المنتصر بالله لمدة ٦ شهور، ثم محمد أحمد بن المعتصم الذي لقب بالمستعين عام ٢٤٨ هـ الذي جعل " أتامش " التركي وزيره، حتى تم قتل " أتامش " ثم انتقل المستعين من سامراء إلى بغداد عام ٢٥١ هـ، ثم خلعه الأتراك عام ٢٥٢ هـ ونفوه إلى " واسط " واختار الأتراك أحمد بن طولون لصحبته في منفاه، فأحسن إليه وأطلق له الحرية في التنقل والصيد، ثم طلب الأتراك من أحمد بن طولون قتل المستعين وبمنونه ولاية " واسط " فلم ترض نفسه أن يقتل خليفة له في وقت بيعة، فأرسلوا سعيد الخادم أحد حجاب القصر في شردمة من الجيش إلى واسط، وتولى قتل الخليفة بنفسه (٣)، وتولى بعده المعتز بالله.

وكان هذا أول ذكر لاسم أحمد بن طولون في خضم هذه الأحداث، وهو من أصل تركي، سيستعمله الخلفاء العباسيين والياً على مصر والشام، فمن هو أحمد بن طولون وأصل أسرته التركية؟ وهو الذي ارتبط اسمه بكبير الأتراك "باكباك" الذي يلقي دعماً من الخليفة المعتز بالله، ومن بعد المعتز بالله الخلفاء المهتدي ثم المعتمد، عام ٢٥٦ هـ وقد شهدت الخلافة العباسية أحداثاً كثيرة في عهد المعتمد أهمها حركة الزنج وحركة القرامطة (٤).

كان طولون، أبو أحمد، مملوكاً تركياً ممن أرسلهم حاكم " بخاري " بإقليم تركستان (بلاد ما وراء النهر) نوح بن أسد الساماني في جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمدينة مرو عام ٢٠٠ هـ الموافق ٨١٥ م من أصل تركي مما يعرف الآن بأوزبكستان حيث تقع بخاري وطقشند وسمرقند وخوارزم التي كانت مراكز لتربية المماليك الأتراك.

(١) جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٣٥

(٢) الطبري (محمد بن جرير) تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٣

(٣) د. محمد علي حيدر، المرجع السابق، ص ٣٢

(٤) د. محمد علي حيدر، المرجع السابق، ص ٣٢

وعندما وفد طولون إلى بغداد أظهر نبوغاً وكفاءة أهلته إلى التدرج في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى صار رئيساً لحرس الخليفة، وتمكن من تربية ابنه- أو متبناه في رأي بعض المؤرخين- أحمد بن طولون تربية إسلامية عسكرية، وهي التربية التي كان جميع المماليك يخضعون لها منذ أن بدأ نظام المماليك في عهد الدولة الأيوبية، ونتيجة للتربية الإسلامية والعسكرية التي نبغ فيها أحمد بن طولون تأهل لأن يصبح حاكماً على ولاية مصر العباسية عام ٢٥٤ هـ الموافق عام ٨٦٨م، نيابة عن بايكباك^(١).

وكان من الطبيعي أن يعتمد بن طولون على المماليك من أبناء العنصر التركي الذي ينتمي إليه في ولايته على مصر والشام، وعندما تطلع إلى الاستقلال المحدود بالولاية عن الخلافة العباسية اهتم بتشكيل جيش كان معظم أفرادهم الأتراك، وبسبب ضخامة عدد هذا الجيش بني لهم أحمد بن طولون ثكنات عسكرية وهي القطائع خارج مدينتي الفسطاط والعسكر بمصر، وتذكر بعض المصادر أن عدد الجند الأتراك في جيش أحمد بن طولون بلغ أربعة وعشرين ألف رجل إلى جانب أعداد كبيرة أخرى من الزنوج ومن العرب.

ويذكر المصادر التاريخية أن أحمد بن طولون لجأ إلى منح الحرية للرقيق الأتراك في جيشه سواء كانوا قادة أو جنوداً وذلك بهدف إنشاء جيش ممتاز ولذا يرجح أنه لم يوجد في جيش أحمد بن طولون وابنه خمارويه ممالك كثيرين، بل إن فكرة تحرير المماليك صارت سمة من سمات عهد الدولة الطولونية للجنود الأتراك أساساً.

وتذكر المصادر أيضاً عن تربية أحمد بن طولون- التي تفسر سياسة في تحرير الجند المماليك- أنه نشأ في أشرف عصور بغداد جندياً مطبوعاً على أجمل صفات الجندي الشريف، وتلقن في بيته وهو طفل أموراً أفادته في حياته، وحفظ القرآن وجوده، وفصح بالعربية، فعد من فصحاء رجال السياسة بلسانه وقلمه، وأخذ عن المحدثين قطعة صالحة من العلم، ورزق صوتاً جميلاً، وأتقن الموسيقى، ونظم الشعر بالتركية لغة أبيه وأمه، وتأفف عنفوان شبابه من الظلم الذي يأتيه الأتراك في عاصمة الخلافة^(٢).

وتذكر بعض المصادر عن سيرة أحمد بن طولون أنه مع نفاسته وجلالته في نفوس الأتراك كان شديد الازدراء لهم، يستصغر عقولهم وآدابهم، ويذكر أنهم قد نتسّموا من المراتب ما لا يستحقون، وأن حرمة الدين بهم مهتوكة، وفرائضه معطلة، وعندما وصل إلى طرسوس- التي كان يخرج إليها كثيراً حيث لقي شيوخ المحدثين وسمع منهم وكتب العلم وحصل له من ذلك قطعة كبيرة- ورأى ما الناس عليه من الأمر بالمعروف ومجانبة المنكر، أنست نفسه وزال استيحاشه وتبع المحدثين، ولم يكون يدخل إلى منزله من التشاغل بهم إلا ليلاً^(٣).

(١) د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ٣٠ وقد مات طولون والد أحمد عام ٢٤٠ هـ ولأحمد عشرون سنة من جارية كانت لأبيه تعرف بقاسم، ولدت أحمد في سنة ٢٢٠ هـ وولدت بعده أخاه موسى، فنشأت أحمد بن طولون نشوءاً جميلاً غير نشوء أولاد العجم من بعد الهمة وحسن الدين.

(٢) أبي محمد بن عبد الله بن محمد المديني البلوي تحقيق وتعليق محمد كرد علي: سيرة أحمد بن طولون، القاهرة، ص ٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٥.

وعرف عن أحمد بن طولون حبه للزهاد وأهل الدين والورع، ومن ثم تمكن له في قلوب الأولياء ما ارتفع به على طبقته، وبأن فضله على وجوه الأتراك، وصار محله عندهم من يوثق به على الأموال والأسرار، ومثل هذا عند العجم محله عظيم في نفوسهم، فخطب إلى "بارجوخ" ابنته فزوجها، وكانت أم ابنه العباس وابنته فاطمة (١).

ونتيجة لذلك أوصى الملك باكبك بأن يتولى أحمد بن طولون ولاية مصر، باعتباره الثقة الأمين، الخبير الدين، الخير، وضم إليه الجيش فوصل مصر يوم الأربعاء ٢٢ رمضان ٢٥٤ هـ، وضم الخليفة إلى أحمد بن طولون بلاد الشام كلها إلى جانب النغور الشامية، وقد اعتمد على المصريين في تسير أمور إمارته، وقال إن كاتب المصري أكتب من الكاتب العراقي، لأن أصبح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه، كما اشتهر عن أحمد بن طولون بإشفاقه على أهل مصر، حتى أنه كان يجوز إشفاق الوالد على ولده، يحوطهم ويراعي أحوالهم ومصالحهم، ويدفع كل مكروه عنهم.

وفي أول شهر ذو القعدة ٢٧٠ هـ قلد أحمد بن طولون، ابنه العباس جميع الأعمال (البلاد) الخارجة عن حدود مصر، مثل بلاد الشام والنغور، وتوفي أحمد بن طولون ليلة الأحد لعشر ليال خلون من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين (٢٧٠هـ) وقد خلف من الولد ثلاثة وثلاثون ولداً منهم سبعة عشر ذكراً، وست عشرة أنثى، فأما الذكور فأكبرهم أبو الفضل العباس، ثم أبو الجيش خمارويه (٢).

ثالثاً: السلطان بيبرس التركي الأصل:

وحق نتحدث عن الظاهر بيبرس المملوك التركي الذي صار سلطاناً على مصر بعد معركة عين جالوت التي كسبها المماليك ضد قوات التتار عام ٦٥٨ هـ الموافق لعام ١٢٦٠ م، لا بد أن نتحدث عن ظروف تلك المعرفة، حتى يتبين لنا كيف ظهر نجم الظاهر بيبرس الذي بزغ نجمه بعد تلك المعركة بسبب بلائه البارز فيها.

باتتهاء حكم الأسرة الأيوبية لمصر والشام بموت شجرة الدر وزوجها زعيم مماليكها عز الدين أيبك أصبح الصراع واضحاً بين زعماء الأمراء المماليك، ذلك الصراع الذي حسمه قرب التتار من بلاد الشام بعد استيلائهم على العراق وتخريبهم للعاصمة بغداد عام ٦٥٦ هـ الموافق لعام ١٢٥٨ م، حيث استطاع أحد أمراء المماليك والذي عرف باسم سيف الدين قطز أن يستفيد من تلك الظروف ليقود المماليك في الحرب ضد التتار وهنا قفز اسم الأمير الظاهر بيبرس الذي كان بالشام وتحالف مع الأمير سيف الدين قطز في هزيمة التتار في موقعة عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م.

وبعد انتصار المماليك في عين جالوت نجح سيف الدين قطز بتطهير بلاد الشام من بقايا الوجود التتري، بينما نجح ركن الدين بيبرس في مطاردة بقايا التتار في حلب، وكان يطمع في تولي عمالة حلب إلا أن قطز أعطاها لصاحب الموصل مما جعل الوحشة تدب منذ ذلك الوقت بين قطز وبيبرس حتى انتهى الأمر بمقتل قطز على يد بيبرس قرب مدينة الصالحية بإقليم الشرقية، أثناء العودة إلى مصر القاهرة (٣).

(١) يارجوخ وزير الخليفة العباسي المهدي بالله، المرجع السابق، ص ٣٥ أيضاً

(٢) نفس المرجع السابق

(٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٩٠، ص ٢٠٠.

خلص الحكم في مصر لركن الدين بيبرس، الأمير المملوكي التركي الأصل، فمن أين هو؟ وإذا كانت سيرة بيبرس يشوبها بعض الغموض، فإن الراجح أنه تركي من قبائل التتر القفجاق في مناطق الاستبس بوسط آسيا، وربما كانت طفولته الباكراة في تلك الأنحاء، ثم خطفه تجار الرقيق، وانتقل من تاجر إلى آخر حتى وصل إلى حماة ببلاد الشام، حيث اشتراه الأمير علاء الدين أيديكين البندقدار، ولهذا نسب إليه بيبرس وعرف بلقب البندقداري، ثم انتقل بيبرس إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي لم يلبث أن منحه حريته مما أعطاه الفرصة كاملة لإثبات شجاعته وفروسيته، ثم انتقل إلى خدمه ابنه تورانشاه بعد وفاته، ثم صار من زعماء المماليك البحرية بعد مصرع تورانشاه^(١).

وبدخول بيبرس قلعه الجبل اتخذ لقب السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، وأرسل إلى الملوك والأمراء في الشام واليمن وسائر الأقطار ليعترفوا بسلطنته، وسعى لإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد سقوطها على يد التتار عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م في بغداد، ومن ثم استدعى أميرا عباسيا هو أحمد بن الظاهر بن ناصر العباسي، وقد وصل فعلا مصر، فأستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام، ثم عقد مجلسا بالقلعة حيث شهد القضاة والعلماء بصحة نسب الخليفة، فبايعه السلطان الظاهر بيبرس الخليفة الجديد _ الذي لقب بالمستنصر _ وتبعه بالقضاة والعلماء وسائر الناس^(٢).

ومبايعة الناس للأمير أحمد بن الظاهر العباسي خليفة للمسلمين ومقره القلعة قام الخليفة الجديد بتقليد بيبرس السلطنة، وتم ذلك في حفل كبير أقيم بعد أيام، وبذلك تحقيق لبيبرس ما أراد، وصار يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية العليا في العالم الإسلامي وهي الخلاف وحسب السلطان الظاهر بيبرس أن الخليفة المستنصر قلده البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفار، وبذلك أضفى على نفسه وعلى حكمه صبغه شرعية، ومنذ ذلك الوقت صارت السكة تضرب بأسمى السلطان والخليفة، كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان^(٣).

وقد توفي الملك الظاهر بيبرس في الثامن والعشرين من شهر محرم سنة ٨٧٦هـ/ ٣٠ يونيو عام ١٢٧٧م بعد أن تجاوز الخمسين من عمره، بعد فترة حكم طالّت إلى سبع عشرة سنة وشهرين واثنين عشر يوما، وكانت وفاته بدمشق فدفن قرب داريا ببلاد الشام حسب وصيته، وتولى ابنه (بركة خان) عرش السلطنة بعد أبيه الذي لم يطل حكمه طويلا حتى نجح سيف الدين قلاوون في استخلاص العرش لنفسه^(٤).

رابعا : السلطان سليم الأول :

السلطان الغازي سليم الأول القاطع هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الرابع والسبعين، وأول من حمل لقب " أمير المؤمنين " من آل عثمان. حكم الدولة العثمانية من سنة ١٥١٢ حتى سنة ١٥٢٠ يلقب " بالقاطع "

وتذكر المصادر أن أصل اسم قطز هو: محمود بن مودود، وأنه ينتسب إلى بيت الملك في خوارزم- ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه، ولما قضى التتار على ملك هذه الأسرة كان قطز من السبايا الذين حملوا على دمشق، وهناك بيع الرقيق للسلطان أيبك التركماني ويقال أن كلمة قطز معناه بالتركية الكلب الشرس، وهذا يتضح أصله التركي، د. أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ١٣٢

(١) د.قاسم عبده قاسم وآخرون، الأيوبيين والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٤٨.

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٣) نفس المرجع ص ٢٠٦

(٤) د. قاسم عبده قاسم وآخرون : المرجع السابق ص ١٦٩-١٧٠، وكان بيبرس قد زوج ابنه بركة خان من ابنة سيف الدين قلاوون لكي يضمن ولاء هذا الأمير وبقية المماليك .

أو " الشجاع " عند الأتراك نظرا لشجاعته وتصميمه في ساحة المعركة، ويعرف بالغرب، وعند الانكليز خصوصا، باسم " سليم العابس نظرا لما يقوله بعض المؤرخين بأنه كان دائما متجهماً الوجه .

وصل سليم إلى تحت السلطنة بعد انقلاب قام به على والده، "بايزيد الثاني"، بدعم من الانكشارية وخاقان القرم، ونجح بمؤازرتهم بمطاردته أخوته وأبنائهم والقضاء عليهم الواحد تلو الآخر، حتى لو يبق له منازع في الحكم، وفي عهده ظهرت السلالة الصفوية الشيعية في إيران وأذربيجان، ونشبت بينهما وبين العثمانيين حرب ضروس انتصر فيها السلطان سليم، ومن ثم حول أنظاره نحو السلطنة المملوكية فغزا أراضيها وقضى عليها نهائيا بعد أن استمرت ٢٦٧ سنة.

يتميز عهد هذا السلطان عما سبقه من العهود بأنه الفتوحات تحولت في أيامه من الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي، حيث اتسعت رقعة الدولة اتساعا كبيرا لشمليها بلاد الشام والعراق والحجاز ومصر، حتى بلغت مساحه أراضيها حوالي مليار فدان يوم وفاة السلطان . وكان من نتيجة فتوحات السلطان سليم أن ازدهرت الدولة العثمانية في أيام خليفته، " سليمان الأول"، بعد أن أصبحت إحدى أهم دروب التجارة البرية : طريق الحرير ودرب التوابل، تمر في أراضي الدولة، ولاكتسابها عدد من المرافئ المهمة في شرق البحر المتوسط والبحر الأحمر .

ولد سليم الأول للسلطان " بايزيد الثاني بن محمد الفاتح " و " عائشة كلبهار خاتون "، الأميرة من سلالة ذي القدر التركمانية، في ١٠ أكتوبر سنة ١٤٧٠ م، الموافقة سنة ٨٧٢ هـ في مدينه أماسيا على ساحل البحر الأسود في الأناضول . وهو أحد الأولاد الذكور الثمانية للسلطان بايزيد، الذين توفي منهم خمسة في صغرهم وتبقى اثنان إلى جانب سليم هما " كركود " و " احمد " . وكان هؤلاء الأمراء يختلفون في المشارب والآراء، فكان " كركود " محبا للعلوم والآداب والفنون ومشتغلا بمجالسه العلماء والدراسة، لذا كان يمحته الجيش لعدم ميله للحرب، وكان " احمد " محبوبا لدى الأعيان والأمراء، وكان الصدر الأعظم : " على باشا " مخلصا له . أما سليم فكان محبا للحرب شرس الطباع ومحبوبا لدى الجند عموما والانكشارية خصوصا . وخوفا من وقوع الشقاق بين الأمراء لاختلافهم في وجهات النظر وتباينهم في الآراء، قام السلطان بايزيد بالتفريق بين أبنائه وعين " كركود " واليا على إحدى الولايات البعيدة، و " احمد " على أماسيا، وسليما على طرابزون .

تولى سليم إدارة سنجق طرابزون وهو مازال في ريعه الحادي عشر، واستمر يديره بحزم ودراية طيلة ٢٩ سنة، ومن عام ١٤٨١ حتى عام ١٥١٠، فعاصر الأيام الأولى لبروز السلالة الصفوية في إيران وأذربيجان، وأدرك أن نفوذ الصفويين المتوسع شيئا فشيئا قد يشكل خطرا على الدولة العثمانية في المستقبل أتقن سليم اللعبة السياسية خلال حكمه طرابزون وبرع فيها، فحسن العلاقات العثمانية مع دول الجوار، وحمل على جورجيا عدة حملات عسكرية لمعاقبه حكامها على ما أطلقوه من الدعاية المعادية للعثمانيين، فغزا مدن قارص وارضروم وارتيقن الخاضعة للسيادة الجورجية، وضمها للدولة العثمانية سنة ١٥٠٨، وكان من نتيجة ذلك أن اعتنق جميع الجورجيين المقيمين في تلك المدن الإسلام ديناً، وازداد تعلق الجنود بسليم وإخلاصهم له على ما أظهره من الشجاعة وحسن التنظيم في تلك الحملات . وخلال هذه الفترة تزوج سليم بوالدة ولي العهد، كما كان يطلق على زوجات السلاطين، " عائشة حفصة خاتون " التي اختلف المؤرخون في تحديد أصلها ونسبها، وأنجب منها ولدا ذكرا هو " سليمان " في ٢٧ أبريل سنة ١٤٩٥ م، الموافق في أول شعبان سنة ٩٠٠ هـ.

وكان السلطان سليم قد عقد العزم على القضاء على إخوته وأولاد إخوته حتى يهدأ باله بداخلية ولا يبقى له منازع في الملك، فعين ابنه سليمان حاكما للقسطنطينية ، وسافر بجيوشه إلى آسيا الصغرى ، فاقتفى اثر أخيه احمد إلى أنقرة ، ولم يتمكن من القبض عليه لوصول خبر قدومه إليه عن طريق الوزير "مصطفى باشا" لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتله جزاء له وعيره لغيره، ثم ذهب إلى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد أخوته بما فيهم "علاء الدين" سالف الذكر ، وأمر بقتلهم جميعا .

وبعدها توجه بسرعة إلى صاروخان مقر أخيه "كركود" ففر منه إلى الجبال ، وبعد البحث عنه عدة أسابيع قبض عليه وقتل إما احمد فجمع جيشا من محازبيه وقاتل الجنود العثمانية ، فانهمز وقتل بالقرب من مدينه يكي شهر في يوم ٢٤ أبريل سنة ١٥١٣م، الموافق في ١٧ صفر سنة ٩١٩ هـ.

وبهذا استفرد سليم بالحكم واطمأن خاطره من جهة داخلية ، فعاد إلى مدينه أدرنه حيث كان بانتظاره سفراء من قبل جمهوريه البندقية ومملكه المجرودوقيه موسكو والسلطنة المملوكية ، فأبرم مع جميعهم هدنة لمدة طويلة بما أن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد فارس التي كانت أخذت في النوم والانتعاش في عصر ملكها ، الشاه "إسماعيل الأول بن حيدر الصفوي"

الحملة الصفوية

ظهرت السلالة الصفوية الشيعية في إيران على يد الشاه "إسماعيل الأول بن حيدر الصفوي" عام ١٤٩٩م، واستطاعت برعائمه أن تهدد بالخطر إمبراطورية العثمانيين في الشرق، حيث كان إسماعيل قد وسع من نفوذه وضم إلى ملكه عدد من البلدان ، فكان قد فتح ولاية شيروان، وجعل مركزه مدينه تبريز ١٥٠١م، وبعدها فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر سنة ١٥٠٨م، وأرسل احد قواده فاحتل مدينه بغداد .و في سنة ١٥١٠م كان قد ضم إلى أملاكه كل بلاد فارس وأذربيجان، وبذلك امتدت مملكته من الخليج العربي إلى بحر قزوين، ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر جيحون.

وكان إسماعيل قد فرض المذهب الشيعي على شعبه، وأعلنه مذهباً رسمياً للدولة في إيران، وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وان كثيراً من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا سنة .فقام باستمالة قبائل القزلباش التركية علوية المذهب إلى جانبه مما جعلهم عماد جيشه، وهي كانت بالأساس متذمرة من التدابير المالية والإدارية العثمانية بل وهيات السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الأناضول، مما جعله يعتمد عليهم بالقضاء على جميع معارضيه، وفرض المذهب الشيعي بالقوة، ففضى على دولة الخروف الأبيض وقد كانت تشكل حاجزا بينه وبين العثمانيين . فباتت الدويلات الكردية والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى والأقليات المسيحية في أرمينيا كلها من ممتلكات الشاه حسب ادعائهم.

وعندنا احتل بغداد عام ١٥٠٨م ، هدم ما كان فيها من قبور أئمة سنة وذبح جماعة من علمائهم، فسرت شائعة في البلاد التركية بان مذبحة عظيمة أصابت السنة ببغداد على يد الصفويين .

وفي ذات الوقت اتسمت العلاقات بين الصوفيين والعثمانيين بالتوتر، فبعد أن تسلم السلطان سليم الحكم لم يصله سفير من إيران كما باقي الدول، فأدرك الجميع في هذا الوقت بالذات أن الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه إسماعيل . وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياح إلى تحركات الصفويين، لا سيما بعد إرسال الشاه إسماعيل وفدا ضخما إلى قنصوه الغوري سلطان المماليك، ضم ٢٠٠ عبد لإبلاغه عن تلك الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم ، حيث بين له انه أن لم يتفقا حاربت الدولة العثمانية كلا منها على حدة وقهرته وسلبت أملاكه ، فعزم سليم على مهاجمة

خصمه الصفوي وتسديد ضربه قويه قبل أن يستعد للنزال . لذلك أرسل هو الآخر وفدا إلى المماليك دعاهم إلى التحالف، لكن بعد مباحثات طويلة اثر المماليك التزام الحياد ، وان كانوا يميلون لجانب الصفويين . أضف إلى ذلك أنه لما عصى السلطان سليم وإخوته والدهم السلطان بايزيد الثاني ، ساعد الشاه إسماعيل الأمير أحمد على والده ثم على أخيه من بعده واستقبل من فر من أولاده عنده، فكان هذا سببا إضافيا جعل السلطان سليم يعتبر الشاه إسماعيل خصمه الألد ويقرر الانتقام منه .

الحملة المملوكية

كان لهذه الحملة أسباب عديدة منها الصراع على الحدود بين الدولتين وموقف المماليك من الصفويين وإيوائهم لأمرأ عثمانيين فارين من السلطنة العثمانية واستغاثة أهل الشام بالعثمانيين من ظلم المماليك حيث كتبوا رسالة باسم العلماء والفقهاء والقضاة يطلبون من سليم الأول تخليصهم من ظلم المماليك الذي طال المال والنساء والعيال ، كما عطلوا تطبيق الشريعة الإسلامية في حكم البلاد ، وطلبوا أن يرسل السلطان وزير ثقة ليلتقي بكبار الرجالات ليؤمن ويطمئن قلوب الشعب .

وكان السلطان سليم ، في أثناء حملته على الصفويين ، قد اتصل بحاكم مرعش وألبستان ، "علاء الدولة " أمير سلالة "ذي القدر " التركمانية التي كانت تسيطر على وادي طوروس من مرعش إلى ألبستان وملطية، حيث تلتقي منطقته نفوذ المماليك الشراكسة بالفرس ، طالبا منه المساهمة في حرب الصفويين ، لكن علاء الدولة اختلق الأعذار في عدم المجيء إليه، متعللا بكبر سنه وانه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية. وما أن مضى السلطان في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقه الجيش بإيعاز من السلطان قنصوه الغوري ، فأرسل السلطان للغوري يخبره بما فعل علاء الدولة، فرد عليه الغوري بكتاب : " إن علاء الدولة عاص فان ظفرت به فاقتله "، وفي نفس الوقت أرسل إلى علاء الدولة يشكره على فعله ويغريه بالاستمرار بتصلبه تجاه العثمانيين .وبسبب ذلك ترك السلطان سليم ٤٠ ألفا من جنده ما بين سيواس وقيصريه، للحفاظ على الأمن بالأناضول من أي اختراق قد يحصل من أي جهة من الجهات التي تنافسه، ولحماية مؤخره الجيش من أنصار الشاه وقوات ذي القدر. وكذلك أرسل السلطان إلى قنصوه الغوري، قبل وصوله لجالديران، رسالة فيها تهديد مبطن يخبره بان الدولة الصفوية غدت قاب قوسين أو ادني من الزوال . ولم ينس السلطان فعلة علاء الدولة ، فانتقم منه عند عودته، وذلك بان أرسل الصدر الأعظم وابن أخى علاء الدولة " على بن شاهسوار " للقضاء عليه من جهة، ولإتمام السيطرة العثمانية على التخوم الشمالية للشام من جهة أخرى، ولم يعد الصدر الأعظم للسلطان إلا بعد قتل علاء الدولة في ارض المعركة . ولما كان علاء الدولة قد اعترف قبل ذلك بسيادة المماليك عليه، فقد بدأ النزاع بين السلطان سليم وبين المماليك الذين كانوا يحكمون آنذاك الشام ومصر.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت هناك أسباب للنزاع بين سليم والمماليك أعمق من هذا بكثير. ذلك أن السلطان سليم كان يطمع على ما يظهر في توحيد البلدان السنية تحت تاجه، وانتزاع المدينتين المقدستين، مكة والمدينة المنورة، من أيدي المماليك. وقد خشي المماليك سياسة سليم التوسعية هذه، ف عقدوا المحالفة سالفة الذكر مع الشاه إسماعيل الصفوي . اخذ السلطان سليم بالاستعداد لمحاربه المماليك بكل ما أوتي من قوه بعد أن تغلب على أمير سلالة ذي القدر، ولما عرف سلطان المماليك بتأهب سلطان آل عثمان لمحاربته، أرسل إليه رسولا يعرض عليه أن يتوسط بينه وبين الفرس

لإبرام الصلح، فلم يقبل سليم بهذا الأمر بل طرد السفير بعد أن أهانه، [٦٨] فلم يجد السلطان "قنصوه الغوري" بدا من الحرب، فسار إلى مدينته حلب على رأس جيش كبير لكي يكون على استعداد لكل هجوم قد يشنه العثمانيون على الشام. ولم يكد السلطان سليم يعلم باحتشاد المماليك عند حلب حتى عقد ديوانه في ((القسطنطينية)) لإسلام بول لمشاورته في الأمر، فقرر الديوان إعلان الحرب على المماليك بعد أن يوفد إليهم سفراء يفاوضونهم في الدخول في طاعة السلطان سليم. وارتكب قنصوه الغوري غلظه سياسيه كبيره عندما أغلظ معاملته السفراء العثمانيون وأهانهم ردا على ما فعله سليم مع سفيره، فلم يكن بد من نشوب الحرب بينه وبين السلطان سليم. وبعد هذه الحادثة، سار السلطان سليم بجيشه إلى بلاد الشام قاصدا مصر ومدينته القاهرة، مقر السلاطين المماليك.

واتصل السلطان الغوري بنائب دمشق من قبل المماليك، "جان بردى الغزالي"، وطلب منه أن يجمع الجيوش في لبنان وسوريا ويسير ملاقاته في حلب، فطلب الغزالي بدوره من أمراء لبنان، وعلى رأسهم "فخر الدين المعنى الأول"، أمير الشوف، أن يجمعوا قواتهم ويحضروا إليه. نزل فخر الدين الأول وباقي الأمراء عند رغبة الغزالي، ومشوا إليه على رأس قوه من الجنود اللبنانيين. تقابل الجيشان العثماني والمملوكي، بالقرب من مدينته حلب في واد يقال له "مرج دابق"، وهناك نشبت المعركة الحاسمة بين الفريقين التي قررت مصير سوريا كلها، وأبدى المماليك في هذه المعركة ضروبا من الشجاعة والبسالة، وقاموا بهجوم خاطف زلزل أقدام العثمانيين، وأنزل بهم خسائر فادحة، حتى فكر السلطان سليم في التقهقر، وطلب الأمان، غير أن هذا النجاح في القتال لم يدم طويلا فسرعان ما دب الخلاف بين فرق المماليك المحاربة، حيث انقلب الغزالي على المماليك، وانضم هو وفخر الدين المعنى الأول إلى قوات السلطان سليم، فقاتلا معه. وبذلك رجحت كفه العثمانيين على كفه قنصوه الغوري. وكان ل سلاح المدفعية الذي عززه العثمانيين وأهمله المماليك كبير الأثر في نصر العثمانيين. وقتل السلطان الغوري أثناء انسحاب المماليك وسنه ثمانون سنة، وكان ذلك يوم الأحد ٢٤ أغسطس سنه ١٥١٦، الموافق في ٢٥ رجب سنه ٩٢٢هـ.

وبعد هذه الواقعة احتل السلطان سليم بكل سهوله مدن حماه وحمص ودمشق، وعين الغزالي واليا عليها مكافأة له على انخيازه للعثمانيين، وقابل من بها من العلماء، فأحسن وفادتهم. وفرق الإنعامات على المساجد وأمر بترميم المسجد الأموي بدمشق. ولما صلى السلطان الجمعة به أضاف له الخطيب عندما دعا له عبارة "حاكم الحرمين الشريفين" لكن سليما فضل استخدام لقب أكثر ورعا هو "خادم الحرمين الشريفين" واستمر باقي السلاطين من بعده يلقبون به، وتوارثه بعدهم ملوك آل سعود في القرن العشرين. كذلك استقبل السلطان وفدا من أمراء لبنان جاء يهنئه بالنصر، وكان في عداد الوفد "فخر الدين المعنى الأول" أمير الشوف، و"عساف التركماني" أمير كسروان وجبيل، و"جمال الدين الارسلاني" فألقى الأمير فخر الدين بين يدي السلطان سليم خطبه دعا له فيها بالعز والتوفيق وأن يجعل الله عهده عهد إسعاد للأمة الإسلامية.

فأعجب السلطان ببلاغه فخر الدين إعجابا شديدا، لا سيما وأنه كان يفهم ويتحدث اللغة العربية بطلاقة، فقدم فخر الدين على سائر الأمراء اللبنانيين ومنحه لقب "سلطان البر" واقره على ولاية الشوف وما جاورها، واعترف له بحق سلالته من بعده في أن يحكموها، كما اقر باقي الأمراء على مناطقهم. أما الأمراء التتوخيون الذين بقوا موالين للمماليك أثناء معركة مرج دابق، فقد عزلهم السلطان سليم عن بلاد الغرب — أي المناطق الساحلية الواقعة بين بيروت وصيدا، وعين مكاخم الأمير جمال الدين الارسلاني. وبضم بلاد الشام، وصلت مساحه الدولة العثمانية ٥٠٠/٢٠٠/٢ كم.

بعد أن انتصر السلطان سليم على المماليك في سوريا، فتحت إمامه الطريق نحو فلسطين ومصر. هذا ولما وصل خبر موت السلطان الغوري إلى مصر، انتخب المماليك "طومان باي" خلفا له، وأرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بسيادة الباب العالي على القطر المصري، فلم يقبل وقتل المبعوثين العثمانيين، واستعد لملاقاة الجيوش العثمانية عند الحدود. وبناء على هذا، عزم السلطان سليم على قتال طومان باي، فاشترى عدة آلاف من الجمال وحملها بمقادير وافرة من المياه ليشرب منها جنده وهم يجتازون الصحراء إلى الأراضي المصرية، والتقت مقدمتا الجيشين عند حدود بلاد الشام حيث هزمت مقدمه المماليك، وتابع العثمانيون زحفهم نحو مصر، فاحتلوا مدينته غزة على الطريق وساروا عابرين صحراء سيناء حتى وصلوا بالقرب من القاهرة. وكان طومان باي مرابطا في الريدانية، وهي قرية صغيرة تقع على الطريق المؤدية إلى القاهرة، فحفر خندقا على طول الخطوط الأمامية، ووضع مدافعه الكبيرة وأعد أسلحته وبنادقه وحاول شحذ همة مماليكه وقواته ولكن دون جدوى؛ فقد جبن كثير منهم عن اللقاء حتى كان بعضهم لا يقيم بالريدانية إلا في خلال النهار حتى يراهم السلطان، وفي المساء يعودون إلى القاهرة للمبيت في منازلهم. ولم يكن من شأن جيش كهذا أن يثبت في معركة أو يصمد للقاء أو يتحقق له النصر، فحين علم طومان باي وهو في الريدانية بتوغل العثمانيين في البلاد المصرية حاول جاهدا أن يقنع امرأة بمباغته العثمانيين عند الصالحية، وهم في حالة تعب وإعياء بعد عبورهم الصحراء، لكن رفضوا، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانية كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم، لكنه لم يغن عنهم شيئا، فقد تحاشت قوات العثمانيين التي تدفقت كالسيل لمواجهة المماليك عند الريدانية عندما علمت تحصيناتها، وتحولت عنها، واتجهت صوب القاهرة، فلاحق بهم طومان باي.

وفي ٢٢ يناير سنة ١٥١٧، الموافق في ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢ هـ التحم الفريقان في معركة هائلة، وعلى الرغم من الخيانة التي بدرت من بعض ضباط المماليك، فقد أبدى سلاح الفرسان المملوكي شجاعة كبيرة في ذلك اليوم، فلم تكد المعركة تبدأ حتى كرت ثلة من فرسان المماليك المدججين بالسلاح الكامل على قلب القوات العثمانية حيث كانت تحقق راية السلطان الخاصة، وكان على رأس الثلة طومان باي نفسه. والواقع أن السلطان سليم لم ينج من تلك الهجمة إلا بأعجوبة، فقد اخطأ طومان باي بينه وبين الصدر الأعظم "سنان باشا الخادم"، حيث قبض عليه وقتله بيده ظنا منه انه السلطان سليم. غير أن ما أقدم عليه سلطان المماليك لم ينفع شيئا، فذهبت كل جهوده إدراج الرياح أمام المدافع العثمانية، فاضطر طومان باي ومن بقى معه إلى الانسحاب إلى نواحي الفسطاط، وكان الثمن الذي دفعه كلا من العثمانيين والمماليك في هذه الحرب باهظا للغاية، إذ بلغ مجموع خسائر الفريقين من الجنود حوالي ٢٥/٠٠٠ جندي.

وبعد المعركة ببضعة أيام، تحديدا في يوم ٢٣ يناير سنة ١٥١٧، الموافق في ٨ محرم سنة ٩٢٣ هـ دخل السلطان سليم مدينته القاهرة في موكب حافل وقد أحاطت به جنوده الذين امتلأت بهم شوارع القاهرة، يحملون الرايات الحمراء شعار الدولة العثمانية، وكتب على بعضها "إنا فتحنا لك فتحا مبينا"، وفي بعضها "نصر من الله وفتح قريب". ولم يكد السلطان يهنأ بهذا الفتح حتى باغته طومان باي في "بولاق"؛ واشترك معه المصريون في هذه الحملة المفاجئة، وأشعلوا في معسكر سليم الأول النيران، وظن الناس أن النصر آت لا محالة، واستمر مقاومه المماليك أربعة أيام وليال، وظهروا فيها على العثمانيين، حتى إن خطب لطومان باي في القاهرة في يوم الجمعة، وكان قد دعي لسليم الأول في الجمعة التي سبقتها، غير أن هذا الفوز لم يحسم المعركة لصالح طومان باي؛ إذ سرعان ما لجأ الجنود العثمانيون إلى سلاح البنادق، وأمطروا به من فوق المآذن

الأهالي والمماليك، فأجبرواهم على الفرار، وفر طومان باى إلى "البهنسا" التي تقع غربي النيل في جنوب القاهرة. وذهب ضحية هذه المناوشات من العثمانيين والمماليك وأهالي المدينة ما يبلغ خمسين ألف نسمة.

ظل طومان باى يعمل على المقاومة بما تيسر له من وسائل، واجتمع حوله كثير من الجنود وأبناء الصعيد حتى قويت شوكته، غير انه أدرك أن هذا غير كاف لتحقيق النصر، فأرسل إلى سليم يفاوضه الصلح، فاستجاب له السلطان العثماني، وكتب له كتابا بهذا، وبعث به مع وفد من عنده إلى طومان باى، إلا أن بعض المماليك هاجموا الوفد وأفنوه عن بكره أبيه، فحقق السلطان سليم وغضب غضبا شديدا، وخرج لقتال طومان باى بنفسه، والتقى الجيشان قرب قرية "الوردان" بالجيزة حيث دارت معركة حامية استمرت يومين وانتهت بهزيمة طومان باى وفراره إلى البحيرة، وهنا أعلن السلطان سليم أنه يعفو عمن يستسلم إليه من المماليك، فاستسلم ثمانته من زعمائهم إليه، ولكنه أمر بقتلهم جميعا.

لجأ طومان باى إلى احد مشايخ البدو بإقليم البحيرة طالبا منه العون والحماية فأحسن استقباله في بادئ الأمر، ثم وشى به إلى السلطان سليم، فسارع بإرسال قوه للقبض عليه فأتت به إليه. وكان السلطان قد أعجب بشجاعة طومان باى وحزمه على القتال والدفاع عن ملكه على الرغم من كل العوائق، فلم يفعل شيئا سوى معاتبته واتهامه بقتل أفراد الوفد الذي أرسله إليه للصلح، فنفى طومان باى التهمة عن نفسه، وبرر استمراره في القتال بان الواجب يحتم عليه ذلك. وكاد السلطان من شدة إعجابه بجسارة وشجاعة طومان باى أن يعفو عنه، ولكنه لم يفعل تحت تأثير الوشاة الذين حرضوا السلطان على قتله بحجة أن لا بقاء لملكه في مصر ما دام طومان باى على قيد الحياة. عندئذ أمر السلطان بقتل طومان باى شنقا، فنفذ أمره في ١٣ ابريل سنة ١٥١٧، الموافق ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ بباب زويلة، ودفن الجثمان في القبر الذي كان السلطان الغوري قد أعد له لنفسه. وبذلك انتهت دوله المماليك وسقطت الخلافة العباسية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر زار في خلالها جميع المساجد التاريخية بالمدينة وكل ما بها من آثار، ووزع على أعيان المدينة العطايا والخلع السنية، وحضر الاحتفال الذي يقام في مصر سنويا لفتح الخليج الناصري عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لري الأراضي المصرية، ثم حضر احتفال سفر قافلة الحجاج التي ترسل معها كسوه الكعبة إلى الأراضي الحجازية وأرسل الصرة المعتاد إرسالها إلى الحرمين الشريفين، من عهد السلطان محمد "جلي" الأول، بقصد توزيعها على الفقراء، وابلغها إلى ثمانية وعشرون ألف دوكا. وفيما كان السلطان سليم في القاهرة قدم إليه شريف مكة، "محمد أبو نعي بن الشريف بركات"، مفاتيح الحرمين الشريفين كرمز لخضوعه وكاعتراف بالسيادة العثمانية على الأراضي المقدسة الإسلامية؛ وكانت هذه السيادة لسلطين المماليك من قبل، وهكذا خضع الحجاز لسيطرة العثمانيين من غير حرب أو قتال. ومما جعل لفتح وادي النيل أهميه تاريخيه عظمى، أن محمد الثالث "المتوكل على الله"، آخر ذريه بني العباس، الذي حضر أجداده القاهرة بعد الغزو المغولي لبغداد سنة ١٢٥٨، وكانت له الخلافة بمصر اسما تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان سليم، على الرغم من أن الأخير كان قد أعلن نفسه قبلا خليفة للمسلمين في دمشق، وسلمه الآثار النبوية، وهى بيرق وسيف وعباءة نبي الإسلام "محمد بن عبد الله". (صل الله عليه وسلم) ومن ذلك التاريخ حمل كل سلطان عثماني لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة المسلمين".

وبعد أن أصبح السلطان خليفة للمسلمين، خلع على نفسه لقب ملك البرين، وخاقيات البحرين، وكاسر الجيشين، وخادم الحرمين الشريفين-ويقصد بهذا، سيطرته على عدد من الدول الآسيوية والإفريقية، وبالتحديد مصر،

الأناضول، ومعظم أنحاء الهلال الخصيب، وسيطرته على البحر المتوسط وما يتفرع عنه من بحور، والبحار المتفرعة من المحيط الهندي، وهزيمته للجيوش الصفوية والمملوكية، وحمايته للمدينتين المقدستين عند المسلمين، مكة المكرمة والمدينة المنورة. في أوائل شهر سبتمبر سنة ١٥١٧، سافر السلطان سليم من القاهرة عائداً إلى القسطنطينية، التي صارت حينها مقر الخلافة الإسلامية، وكان سفره عن طريق بلاد الشام مصطحباً معه آخر بني العباس، وعين الأمير "خاير بك الجركسي" واليا على مصر، والأخير هو أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان باي وانضموا إلى السلطان سليم وعمل لديه سرا، وكان له دوراً كبيراً في انكسار جيش المماليك في مرج دابق والريدانية، حيث بث إشاعه أن السلطان "قنصوه الغوري" قتل أثناء معركة مرج دابق، فتفرق شمل جيشه ووقعوا لقمه سائغة للعثمانيين، كذلك كان قد عمل على بث روح الهزيمة ونشر بذور الفتنة بين قواد المماليك في مصر، مما تسبب في سقوط دولتهم بعد معركة الريدانية.

ويروى ابن إياس أن لدى خروج سليم الأول من مصر أخذ معه كميات كبيرة من الكنوز والأموال. كما أنه يروى لدى احتلاله للقاهرة نقل امهر فنانيتها وحرفيها إلى الأستانة. وترك السلطان بالمدينة حاميه عسكريه لحفظ الأمن تحت قياده "خير الدين أغا" الانكشاري. وفي أثناء عبور الجيش العثماني لصحراء العريش، التفت السلطان للصدر الأعظم "يونس باشا"، الذي كان فتح مصر على غير رأيه، وقال له ما معناه أنه قد أتم فتحها خلافاً لرأيه، فأجابه يونس باشا بأن فتحها لم يعد عليه بشيء إلا قتل نحو نصف الجيش بما أنه سلمها لخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه، فلا يؤمن ولاؤه للدولة. فغضب السلطان من هذا الكلام الموجه إليه بصفه لوم وأمر بقتل الصدر الأعظم في الحال فقتل، وكان ذلك في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥١٧م، الموافق في ٦ رمضان سنة ٩٢٣هـ وعين بدلاً منه "بير محمد باشا"، الذي كان معينا قائم مقام السلطان في القسطنطينية أثناء تغيبه في فتح مصر، لثقته به بناء على ما أظهره من أصالة الرأي في محاربة الشاه إسماعيل.

وفي ٦ أكتوبر سنة ١٥١٧، الموافق في ٢٠ رمضان سنة ٩٢٣هـ، وصل السلطان إلى مدينه دمشق ومكث بها إلى ٥ مارس سنة ١٥١٨م، الموافق في ٢٢ صفر سنة ٩٢٤هـ، ثم سافر إلى مدينه حلب بعد أن حضر الاحتفال بإقامة الصلاة لأول مره في المسجد الذي أقامه بدمشق على قبر الشيخ "محيي الدين بن عربي" في ٥ فبراير من نفس السنة. وبعد أن أقام بحلب مده شهرين ارتحل عنها قصداً الأستانة، فوصلها في ٢٥ يوليو، الموافق في ١٥ رجب، وأقام بعد ذلك حفلاً ضخماً ومولداً نبوياً في مسجد آيا صوفيا بمناسبة وصول الآثار النبوية إلى العاصمة، وأودعها في جناح خاص في قصر الباب العالي، ثم ارتحل عن العاصمة بعد عشرة أيام إلى مدينة أدرنة ليستريح من عناء السفر، وكان الأمير سليمان معينا حاكماً على القسطنطينية طيلة غياب والده، وبعد وصول الأخير بعشرة أيام استأذنه الأمير سليمان بالسفر إلى ولاية صاروخان المعين واليا عليها.

مصادر البحث:

١. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، صفحته: ١٨٦.
٢. سلاطين وباشاوات الدولة العثمانية: السلطان سليم القاطع (سليم الأول) تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - -
٣. المصور في التاريخ، الجزء السادس، تأليف: شفيق حجا، منير البعلبكي، بيج عثمان. دار العلم للملايين. صفحته ١٢٩
٤. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، صفحته:

٥. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م،
٦. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، صفحته:
٧. الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط. للدكتور علي الصلابي / دار المعرفة بيروت/ الطبعة الثانية ٢٠٠٥/ص: ٢٠١ و ٢٠٠
٨. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ستيفن لونكيرك (المفتش الإداري السابق في الحكومة العراقية). ونقله إلى العربية جعفر الحياط. ط. الخامسة ٢٠٠٤ ص: ٣٣
٩. فاضل البيات ص: ١٧، نقلا عن مخطوطة (هامة ر، دولت عثمانية تاريخي، استانبول ١٣٣٠، ج ٤، ص ١١٢
١٠. ابن إياس. بدائع الزهور: ورأى المماليك انه من المناسب إرسال قوات إلى أطراف حلب لمربطتها هناك .
١١. عباس صباغ ص: ١٢٩ نقلاً عن هامر ف ب: تاريخ إمبراطوري عثماني، ترجمة: ميرزا زكي علي مازندراني، به اهتمام: جمشيد كيان فر، تهران، ١٣٦٧هـ.
١٢. فلسفة التاريخ العثماني. محمد جميل بيهم بيروت ١٩٥٤. ص: ١١٥
١٣. تاريخ الدولة العثمانية: د. احمد متولي ص: ١٨٨ نقلا عن كتاب منشآت الملوك والسلطين، لأحمد فريدون. مخطوط بمكتبة طوبقبو سراى تحت رقم R1960 ص: ٣٥٩
١٤. عباس صباغ. ص: ١٣٠ نقلا عن المرجع الفارسي عبد الرضا هوشنك مهدوى. تاريخ روابط خارجي إيران. تهران ١٣٦٩هـ
١٥. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ
١٦. تاريخ الدولة العثمانية. د. احمد متولي ص: ١٨٨
١٧. محمد جميل بيهم العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب. بيروت ١٩٥٧. ص: ١٠٣
١٨. موسوعة تاريخ إيران السياسي، ج: ٣ من بداية الدولة الصفوية إلى نهاية الدولة القاجارية. ص: ٢٣-٢٤ حسن كريم الجاف. الدار العربية للموسوعات. بيروت. ط: الأولى ٢٠٠٨م - ١٤٢٨هـ
١٩. حبيب الله شاملوني: تاريخ إيران ازماذ تا بهلوى. ص: ٦١٥ وذكر فيها : أن أهالى تبريز والقزلباش الموجودين فيها قد شكلوا خلايا سرية في منطقته شام غازان وكانت تغير ليلا على قوات الانكشارية وتمعن فيها تقتيلا.
٢٠. الدكتور، محمد التونجى. (٢٠٠٤) بلاد الشام إبان العهد العثماني . دار المعرفة
٢١. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، صفحته: ١٩١.
٢٢. نبذة في ذكر ملوك آل عثمان. مخطوط مجهول المؤلف موجود بمكتبة الأسد الوطنية. دمشق. رقم ٨٤٣٤. ص: ٥١
٢٣. يذكر فاضل بيات عنه بأنه عالم ومؤرخ كردى، كان يعمل كاتباً في ديوان دولة الخروف الأبيض قبل سيطرة الصفويين، وبعد معركة جالديران دخل في خدمة الدولة العثمانية
٢٤. المصور في التاريخ، الجزء السادس، تأليف: بهيج عثمان، شفيق جحا، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت : صفحة ١٣٠-١٣٢
٢٥. ابن إياس. بدائع الزهور في وقائع الدهور. القاهرة ١٩٨٤ (ج ٤/ص ٣٨٤)

٢٦. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامى، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ.
٢٧. المصور في التاريخ، الجزء السادس، تأليف: بهيج عثمان، شفيق جحا، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، صفحه ١٣٨.
٢٨. المصور في التاريخ، الجزء السابع، تأليف: شفيق جحا بهيج عثمان، منير البعلبكي، دار العلم للملايين. علاقة المعنيين بالعثمانيين، صفحه ١٧.
٢٩. المصور في التاريخ، الجزء السادس، تأليف: بهيج عثمان، منير البعلبكي، شفيق جحا، دار العلم للملايين. صفحه ١٣٤-١٣٦.
٣٠. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامى، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، صفحه: ١٩٣.
٣١. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامى، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٣٢. رأفت غنيمى الشيخ: تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٣٣. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، القاهرة، ١٩٧١.
٣٤. بن الأثير على بن احمد بن عبد الكريم: كتاب الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
٣٥. فيليب حتى: تاريخ العرب المطول ج١.
٣٦. حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٣٨.
٣٧. محمد على حيدر: الدويلات الإسلامية في المشرق القاهرة.
٣٨. احمد أمين: ظهر الإسلام، القاهرة، ١٩٥٣م.
٣٩. جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء.
٤٠. الطبري (محمد بن جرير) تاريخ الأمم والملوك، ج١٣.
٤١. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ٣ أجزاء.
٤٢. احمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية.
٤٣. أبي محمد بن عبد الله بن محمد المديني: سيره احمد بن طولون، القاهرة.
٤٤. سعيد عاشور: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، القاهرة.
٤٥. قاسم عبده قاسم: الأيوبيين والمماليك، القاهرة.

46. Yavuz Sultan Selim Han.T.C.Kultur ve Turizm Bakanligi (2010-013)
47. Osmanli Padisahlari.Turk Tarih Kurumu(2010-03-13)
48. Yavuz Sultan Selim Biography Retrieved on 2007-09-16
49. The Rise Of the Turks and the Ottoman Empire Retrieved on 2007-09-16